مانديلا . .

الزنبقة السوداء

ربما لم يظهر زعيم أسود أشادت به الصحف العالمية مثل نلسون مانديلا . فمنذ الافراج عنه فى فبراير ١٩٩٠ راحت صحف العالم الكبرى – على اختلاف توجهاتها ومشاربها – تعيد إلى الأذهان نضال هذا الثائر الأفريقى الذى تحدى أعتى الأنظمة العنصرية وآثر أن يمضى نحو ٢٨ عاما فى السجن حتى لا يفرط فى مبادئه قيد شعرة !

وكانت صحف الغرب قد دأبت على السخرية من الزعماء الأفريقيين ، والأزدراء بهم .. ولكنها ازاء مانديلا كان موقفها هو التبجيل والاجلال .. فهى هنا إزاء زعيم من طراز نادر مثل ندرة الزنبقة السوداء التى لا أثر بها لأى شائبة .. هو زعيم نسيج وحده وطراز ذاته .

لم يكد يصل عمره إلى ٤٤ سنة حتى كان قد وصل إلى الصف الأول فى زعامة الجبهة القومية السوداء بجنوب أفريقيا .

كانت السلطات العنصرية قد اعتقلته لمدة خمس سنوات بتهمة « الخيانة العظمى » ! .. وقدمته للمحاكمة التى حكمت فى النهاية بتبرئته فى مارس ١٩٦١ بعدها تحول إلى وسيلة المقاومة السرية .. حيث اختبأ عن أنظار السلطة العنصرية وأخذ يصدر

البيانات والنداءات اليومية من مخبئه إلى جميع المواطنين السود بأن ينظموا المظاهرات والاضرابات عن العمل .. وكانت هذه النداءات تحدث فعل السحر . وراحت الشرطة العنصرية تطارده فى كل مكان بينما كان هو يغير مكان مبيته كل ليلة .. كان موجودا فى كل مكان . فى القرى والمدن والنجوع حيث يجد فى كل بقعة بيتا من بيوت أصدقائه الذين يثق بهم .

ولم يكن يستقر مع أسرته .. وعندما سألته ابنته لماذا اخترت هذا الطريق .. أجابها : إن هذا الطريق هو الذى اختارنى . ثم أضاف : ما الذى يمكن أن أفعل بعد أن حظرت السلطات العنصرية البيضاء نشاط حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى .. وبعد أن ارتكبت مذبحة شارب فيل .. ؟

وأطلق أنصاره عليه اسم « الزنبقة السوداء » وسرعان ما أصبح هذا الاسم هو الذى تنطق به الشفاه فى كل مكان وأصبح شعار الوطنيين الأفريقيين هو الزنبقة السوداء موجود فى كل بقعة من بلادنا .

وابتداء من مايو ١٩٦١ بدأ مرحلة جديدة من النضال حيث دعا جميع الوطنيين السود إلى وقف أى تعاون مع حكومة الأقلية العنصرية البيضاء .. وقال : نريد أن نجعل مهمة هذه الحكومة مستحيلة .. فهى تحرمنا من حقوقنا السياسية وفى نفس الوقت تجبى منا الضرائب . لن ندفع لهم قرشا واحدا إلا بعد أن نتساوى معهم فى حق الانتخاب وحق الترشيح للبرلمان .

وأدرك مانديلا بعد ذلك أن شعبه لن ينتصر فى معركة التحرير بالمقاومة السلبية وحدها وإنما يتحتم على الشعب أن يصبح معدا للكفاح المسلح .. وفى يناير ١٩٦٢ خلع ملابسه المدنية وارتدى البدلة الكاكى واستطاع أن يعبر الحدود إلى بوتسوانا ومنها إلى العاصمة الأثيوبية أديس أبابا حيث كان يعقد هناك مؤتمر حركة تحرير شرق ووسط أفريقيا ، وبعد المؤتمر سافر إلى دار السلام ثم إلى لاجوس ثم إلى القاهرة ودول شمال وغرب أفريقيا قبل أن يطير إلى لندن ويلتقى بزعماء حزب العمال البريطانى الذى كان فى المعارضة .

وفى يوليو من نفس العام ١٩٦٢ عاد إلى بلاده .. وكانت عناوين الصحف « عودة الزنبقة السوداء » .. ونشطت الشرطة العنصرية من جديد وقامت بحملة محمومة لتفتيش كل الأماكن التى تتصور أن مانديلا قد يلجأ إليها واستمرت الحملة ثلاثة أسابيع بلا جدوى .

كان مانديلا قد حل فى ضاحية لمدينة جوهانسبرج حيث أعد له أنصاره مخبأ بعيدا عن أنظار السلطة العنصرية .. وبعد أيام آثر الانتقال إلى مدينة دوربان حيث تنكر فى هيئة سائق . وفى يوم الأحد ٥ أغسطس لحقت بسيارته احدى دوريات الشرطة بعد أن قطع ساعة ونصف الساعة فى الطريق إلى خارج دوربان .. وسرعان ما أحدقت به الدورية من كل جانب.. وهكذا بدأت فترة اعتقاله التى استمرت زهاء ٢٨ عاما من ٥ أغسطس ١٩٦٢ إلى ١١ فبراير ١٩٩٠ .

ومنذ اليوم الأول للقبض عليه خرج ملايين الوطنيين السود للمطالبة بالإفراج عنه وأخذوا ينتظمون فى المظاهرات والمؤتمرات الشعبية فى كل مكان .. وكان رد الحكومة العنصرية أن أصدرت أمرا بحظر جميع الاجتماعات والتجمعات .

وأخذوه فى البداية إلى جوهانسبرج ثم إلى بريتوريا .. وكانوا ينقلونه داخل سيارة عتيقة ليس فيها مقاعد ولم يكن يجد شيئا يجلس عليه سوى إطار كاوتش متهالك .

وفى الجلسة الأولى لمحاكمته .. لم يكد يدخل إلى القاعة حتى دوت بالتصفيق .. وكان يتدثر بفراء فهد وظل متمسكا بهذا الدثار حتى انتهاء محاكمته .. وكان الاتهام الموجه إليه هو إنه طبع ووزع منشورات تدعو العمال للاضراب مما ترتب عليه اضراب عشرات الآلاف عن العمل خلال صيف عام ١٩٦١ ، كما أنه غادر البلاد ثم دخل إليها دون استخراج وثائق سفر .

وتولى مانديلا الدفاع عن نفسه حيث أن مهنته هى المحاماة وكان مقتضبا فى دفاعه ولم يطلب أى شهود وأنهى مرافعته قائلا : اعترف بكل التهم المدرجة فى قرار اتهامى ولكنى لا أرى فيها أى جرم .

وأثناء المحاكمة سدت القوات العنصرية الشوارع المؤدية لمبنى المحكمة وحولت المرور إلى شوارع فرعية واتخذ رجال الشرطة مواقعهم حول مبنى المحكمة وهم مزودون بالقنابل المسيلة للدموع .

وفى الجلسة التانية شرح للمحكمة كيف إنه بدأ حياته العملية محاميا ولكن السلطات العنصرية لم تلبث أن أمرته بأن ينقل مكتبه من مدينة جوهانسبرج إلى واحدة من المدن المخصصة لسكنى السود !

وصدر الحكم عليه بالسجن عامين بتهمة الاثارة وثلاث سنوات بتهمة مغادرة البلاد بدون جواز سفر .

وذهب إلى السجن تاركا وراءه زوجة شابة وابنتين صغيرتين بالإضافة إلى ثلاثة أبناء من زوجة سابقة .

وكان المفروض أن تنتهى فترة السجن بعد خمس سنوات .. ولكن السلطات العنصرية لم تلبث أن وجهت إليه تهما أخرى من بينها « التخريب » وقدمته إلى المحاكمة من جديد وأصدرت عليه حكما بالسجن مدى الحياة فى أكتوبر ١٩٦٣ .

أما التخريب الذى اتهمته به السلطات العنصرية .. فقد بدأ فى ١٤ يونيو ١٩٦٤ عندما نسف الوطنيون واجهة مكتب بريد جوهانسبرج .. ومنذ ذلك الوقت بدأ النضال الفعلى للوطنيين الذى كان يقوده مانديلا من داخل سجنه وهو النضال الذى تصورت تلك السلطات إنه سينتهى بالحكم على الزنبقة السوداء مدى الحياة . وعقب الافراج عنه بأربع سنوات أجريت أول انتخابات ديمقراطية فى جنوب أفريقيا ، أسفرت عن اختيار مانديلا كأول رئيس أسود للبلاد .

جيمى كارتر

الجوكـــر

مع إشراقة شمس أول أيام عام ١٩٩٤ بدأت فى البوسنة هدنة مدتها أربعة شهور .. هذه الهدنة التى جاءت بعد ٣٢ شهرا من القتال كانت بمثابة التمهيد لاجراء محادثات بين أطراف النزاع للاتفاق على كيفية تنفيذ خطة السلام الدولية . وهى الخطة التى رفضها صرب البوسنة ثم عادوا فوافقوا عليها من خلال وساطة الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر .. والاتفاق على خطة السلام وعلى الهدنة وعلى اطلاق سراح الأسرى من الجانبين لم يستغرق من كارتر أكثر من ثلاثة أيام خلال رحلة خاطفة من مسقط رأسه بولاية جورجيا إلى مدينة سراييفو .

وعندما شرع كارتر فى مهمة الوساطة هذه فى أواسط ديسمبر ١٩٩٤ .. قال الكثيرون إنها ستفشل ، فقد سبق أن فشلت فيها الأمم المتحدة وحلف الأطلنطى ومجموعة الاتصال التى تتألف من خمس دول كبرى ، ولكن كارتر أقبل على المهمة وصحب فيها زوجته روزالين ، وكأنه ذاهب فى نزهة سياسية ..

وقبل بضعة أشهر كان قد طار من أقصى شرق الكرة الأرضية ثم إلى أقصى غربها .. حيث هبط فى بيونج يانج لكى يستميل الزعيم الكورى الشمالى المخضرم كيم ايل سونج ويقنعه بضرورة

التخلى عن إنتاج الأسلحة النووية والاتجاه إلى استخدام الطاقة الذرية فى الأغراض السلمية بدعم مالى وفنى من الولايات المتحدة . وبعد أيام قليلة من الموافقة مات كيم ايل سونج . وكأنما هو قد عاش ٨٢ سنة – منها ٤٦ سنة فى الحكم – لكى يكون آخر قرار له هو الذى وسوس به إليه « الشيطان » الأمريكى .. وهذا الوصف الأخير مأخوذ من قاموس الكوريين الشماليين .

وبعد بيونج يانج هبط كارتر فى مطار بورت أوبرينس لكى يكون على موعد مع القادة العسكريين فى جمهورية هايتى حيث استطاع أن يقنعهم بأن يتخلوا عن الحكم الذى اغتصبوه فى ديسمبر ٩١ حتى تعود السلطة إلى الرئيس الشرعى الذى كان قد انتخبه الشعب فى ديسمبر ٩٠ .

ويأتى ترتيب كارتر الـ ٣٩ بين الرؤساء الأمريكيين وهو أول رئيس من الجنوب منذ الحرب الأهلية ، وخلال فترة رئاسته التى لم تتجاوز دورة واحدة (١٩٧٧ – ١٩٨١) توسط لعقد اتفاقات كامب ديفيد فى خريف عام ١٩٧٨ ، ثم وقع كطرف ثالث على معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى ربيع ١٩٧٩ .

وبعد سنوات قليلة من انتهاء رئاسته توسط بين أثيوبيا وثوار اريتريا ، وأثمرت وساطته قيام دولة اريتريا المستقلة برئاسة أسياسى أفورقى عام ١٩٩٢ ، وأصبحت عضوًا فى منظمة الوحدة الأفريقية فى العام التالى .

كذلك شارك كارتر كمراقب فى الانتخابات الرئاسية التى أجريت فى بنما عام ١٩٨٩ ، وشهد مع العديد من المراقبين الآخرين ، على تزوير هذه الانتخابات ، وكانت هذه الشهادة هى الذريعة التى استندت إليها الولايات المتحدة فى غزوها العسكرى لبنما وأسرها للحاكم العسكرى الجنرال نورييجا وترحيله إلى الولايات المتحدة ومحاكمته ..

اسمه الرسمى جيمس ايرل كارتر . أما جيمى فهو اسم التدليل ، ووالده أيضا كان اسمه جيمس ومات منذ ٤٣ سنة ، ووالدته ليليان توفيت بعد تركه الرئاسة وهو من مواليد برج الميزان ، ووساطته مطلوبة فى أى نزاع سواء فى الشرق الأوسط أو الأقصى أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ، فهو مثل الجوكر في لعبة الكوتشينة .. « يسد » فى أى موقع ويحل عقدة أى نزاع ، وينظم حوله أوراق اللعب ويعرف كيف يوفق بين الخصوم وينسق بين مواقفهم المتنافرة ، لكى يلتقوا فى النهاية على أسس مشتركة ينطلقون منها إلى التفاوض حول التفاصيل . عمره الآن ٧١ سنة وأربعة شهور وفى عام مولده صدر القانون الخاص باعتبار جميع الهنود الحمر مواطنين أمريكيين .. وهو لم يدرس علوم السياسة ولا القانون الدولى ، وإنما درس قوانين البحار وتكنولوجيا السفن والملاحة فى أعالى البحار ، وبعد أن تخرج من الأكاديمية البحرية الأمريكية عمل فى برنامج إعداد الغواصات الذرية ، ولم يترك هذا العمل

إلا بعد وفاة والده عام ١٩٥٣ حيث تفرغ للمزرعة التى ورثها ، واتجه إلى الاهتمام بزراعة الفول السودانى وحلج الأقطان .

وفى عام ١٩٦٦ جرب أن يرشح نفسه لمنصب حاكم ولاية جورجيا ، ولكنه سقط ، وأعاد ترشيح نفسه بعد أربع سنوات ونجح .. وإلى ما قبل معركة الرئاسة عام ١٩٧٦ لم يكن اسمه معروفا خارج ولايته ، وفى الاستفتاءات الأولى كانت نسبة المؤيدين له سبعة فى المائة فقط .. ولكنه اتجه بحملته الانتخابية إلى التركيز على محاربة الفساد الذى ارتبط بفترة الرئيس الجمهورى الراحل ريتشارد نيكسون ، وقال إن ديدنه هو نظافة اليد وطهارة الذيل وحماية حقوق الإنسان ، فلم تلبث الأصوات المؤيدة له أن تضاعفت حتى لم يجد الحزب الديمقراطى بدا من اختياره مرشحا رسميا له ، وبهذا الاختيار أصبح من السهل عليه أن ينتصر على المرشح الجمهورى جيرالد فورد الذى كان قد دخل إلى البيت الأبيض قبل بضعة أشهر بلا انتخاب ولا استفتاء ، وإنما وجد نفسه فجأة فى قمة السلطة التنفيذية بعد استقالة نائب الرئيس سبيرو أجنيو ثم استقالة الرئيس نيكسون نفسه فى ذروة فضيحة ووترجيت الشهيرة .

وخلال رئاسة كارتر قامت الثورة الايرانية بزعامة الامام الخمينى ، وهاجم الطلبة الايرانيون مقر السفارة الأمريكية فى طهران ، واتخذوا من طاقم السفارة رهائن لمدة ٤٤٤ يوما ، ولم يطلق سراحهم إلا فى اليوم التالى لانتهاء رئاسة كارتر ، وبدء رئاسة

رونالد ريجان .. فكانت أول مهمة لكارتر بعد انتهاء رئاسته هى التوجه – بناء عى تكليف الرئيس « الجديد » – إلى إحدى القواعد العسكرية الأمريكية فى ألمانيا لكى يكون فى استقبال رهائن السفارة ، حيث جرى توقيع الكشف الطبى عليهم قبل عودتهم إلى وطنهم .

وخلال فترة رئاسة كارتر أيضا وقع الغزو العسكرى السوفيتى لأفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩ ، وكان الرد الأمريكى الذى اتخذه كارتر هو حظر تصدير القمح إلى « الاتحاد السوفيتى » ومقاطعة دورة الألعاب الأوليمبية التى نظمت فى موسكو فى العام التالى .

وبعد سنوات من تركه الرئاسة انشأ مؤسسة « ذات نفع عام » ، أطلق عليها اسم « مركز كارتر » ، ومهامها الأساسية هى السعى لحل النزاعات الاقليمية والعالمية بالحكمة والتؤدة والتروى ، والحث على الالتزام بمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان فى كافة أرجاء المعمورة .

وفى الفترة الأخيرة تولى رئاسة مؤسسة أخرى تحمل اسم « عالم سنة ٢٠٠٠ » بالتعاون مع الملياردير تيد تيرنر زوج النجمة المعروفة جين فوندا وصاحب شبكة تليفزيون « سى إن إن » الشهيرة ، وتهدف هذه المؤسسة إلى قيام ائتلاف دولى لعالم تتوحد فيه الأجناس والعقائد والأديان ، وهو هدف أقرب إلى الأحلام ، ولكنهم يقولون إن أعظم الإنجازات كانت فى البداية تبدو أحلاما .

وقد اقترن جيمى كارتر بروزالين بعد عام واحد من انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حيث كان عمره ٢٢ سنة وعمرها ١٩ سنة ، ولهما الآن ثلاثة أولاد هم : تشيب وجيف وجاك وابنة واحدة اسمها إيمى هى آخر العنقود وعمرها ٢٨ سنة ..

ولجيمى أخ اسمه بيلى يصغره بـ ١٣ سنة ، وعندما نجح جيمى فى الوصول إلى الرئاسة .. رشح بيلى نفسه لمنصب عمدة مدينة بلينز مسقط رأس الأسرة . ولكنه سقط سقوطا مدويا . وبعد ثلاث سنوات ، جرى التحقيق معه بتهمتى الرشوة والعمالة لدولة أجنبية ! .

وفى أكتوبر ١٩٩٤ عند احتفال جيمى كارتر بعيد ميلاده السبعين تلقى جائزة فولبرايت للتفاهم الدولى وقيمتها ٥٠ ألف دولار ، وصاحب هذه الجائزة هو السناتور السابق ويليام فولبرايت الذى توفى أخيرا عن تسعين سنة وهو ينتمى للحزب الديمقراطى مثل كارتر ومثل الرئيس الحالى بيل كلينتون . وهذا السناتور هو الذى وضع البرنامج الذى يحمل اسمه منذ عام ١٩٤٤ ، والخاص بالتبادل الثقافى والتعليمى ، وهو ينتمى إلى ذات الولاية الجنوبية التى كان كلينتون حاكما لها وهى ولاية اركانسو .

ولا تبعد اركانسو كثيرا عن ولاية جورجيا ، التى ينتمى إليها كارتر ، وهذه الأخيرة هى التى أنجبت الملاكم محمد على كلاى والزعيم الأسود مارتن لوثر كينج (الذى اغتاله المتطرفون البيض

عام ١٩٦٨ والحائز على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤) والروائية مارجريت ميتشيل صاحبة الرواية المشهورة « ذهب مع الريح » .

ويطلقون على جورجيا اسم « امباير ستيت الجنوب » أو « ولاية الخوخ » وفيها نموذج صغير للبيت الأبيض كان الرئيس الراحل روزفلت يتخذ منه مقرا شتويا حيث الدفء فى الجنوب ، وفى هذه الولاية جرى اكتشاف الذهب لأول مرة فى الولايات المتحدة ، ومنها بدأت أول اندفاعة نحو الغرب فى سبيل « البحث عن الذهب » بعد اكتشاف الذهب بكميات أكبر فى ولاية كاليفورنيا عام ١٨٤٨ .

وقد كان يوم أول فبراير الحالى ، وهو آخر موعد لقبول الترشيحات لجائزة نوبل للسلام للعام الحالى .. والمرجح أن اسم كارتر كان بين أوائل المرشحين ..

كاسترو
فى معسكر الأسرى

الطريق إلى مجتمع الوفرة يبدأ بزورق ..

كان هذا هو شعار أهالى كوبا لأكثر من ٢٨ سنة فعلى مدى ثلاثة عقود تقريبا ، ظلت الولايات المتحدة تمنح حق اللجوء تلقائيا لأى كوبى يتمكن من الوصول إلى الساحل الأمريكى .. وأقرب ساحل أمريكى لكوبا هو الشاطئ الجنوبى لولاية فلوريدا .. والمسافة بين كوبا وفلوريدا يقطعها أى زورق فى بضع ساعات .. وكان أى مواطن فى كوبا يحصل على زورق أو مكان فى زورق يضمن لنفسه ولأسرته الاستقرار فى « أرض الأحلام » !

وفى الماضى كان نظام حكم فيدل كاسترو يحظر على أى مواطن أن يستقل قاربا ويتجه به إلى الشمال ، وكانت الهجرة إلى الولايات المتحدة تعتبر خيانة وطنية .. ولكن الوضع انقلب فجأة فى صيف عام ١٩٩٤ ، فقد أعلن كاسترو أن أى فرد فى كوبا بلغ عمره ١٨ سنة يستطيع أن يقلع إلى الولايات المتحدة وقتما يشاء دون أى محظورات .. فى حين أعلن الرئيس الأمريكى كلينتون أن الولايات المتحدة قد رجعت عن قرارها السابق الذى ظل مطبقا لمدة ٢٨ سنة .. ومن ثم فهى لم تعد تقبل منح حق اللجوء لأى كوبى يصل إلى شواطئ الولايات المتحدة ، وإنما يتحتم على الكوبيين أن يحصلوا أولا على تأشيرة دخول مثلهم مثل سائر دول العالم الثالث ..

ولكن الكوبيين فى هذه المرة لم يعبأوا بتحذيرات واشنطن وإنما استمعوا إلى كلام كاسترو ..

وقال كاسترو إن أبناء جزيرة كوبا يهاجرون إلى الولايات المتحدة بسبب الحصار الاقتصادى الذى تفرضه الولايات المتحدة عليهم ..

فلو رفعت واشنطن الحصار لتوقف طوفان هجرة الكوبيين إلى الولايات المتحدة . وقالت واشنطن أن الحصار الاقتصادى يستهدف الضغط على كاسترو لكى يغير طبيعة نظامه الشمولى ولكى يجرى انتخابات حرة ..

وتحولت العملية إلى صراع إرادات : إرادة الرئيس الأمريكى ومعه كل امكانيات الولايات المتحدة أمام إرادة ذلك الزعيم الملتحى الذى يضع الآن فى أذنيه سماعات الكترونية بعد أن ضعف سمعه ، والذى أقلع أخيرا عن عادة التدخين ولم يعد يظهر فى الأماكن العامة وفى فمه السيجار الهافانا الذى كان فى الماضى إحدى علاماته المميزة لأن صدره لم يعد يقوى على استنشاق الدخان ..

عمره الآن ٦٧ سنة وستة أشهر فهو من مواليد ١٣ أغسطس ١٩٢٧ .. وهو نفسه يتفاءل بالرقم ١٣ ، لأنه اقترن بزوجته الأولى يوم ١٣ ديسمبر ١٩٤٧ عندما كان طالبا بالجامعة .. وعندما تخرج بادر إلى طلب الطلاق .

فى الماضى كانوا يسمونه « الكوماندة » .. أما الآن فلا أحد

يدرى ما هو الاسم الذى يطلقه عليه أبناء شعبه .. وهو زعيم مخضرم من نوع كيم ايل سونج الذى رحل إلى العالم الآخر منذ عامين .. فقد شهد هو أيضا خلال فترة حكمه تسعة من الرؤساء الأمريكيين وستة من الرؤساء السوفيت ، ورأى العديد من زعماء أمريكا اللاتينية المجاورين له والذين يتكلمون لغته ، يلقون مصرعهم أو يسقطون من السلطة ، وكان أولهم رفيق كفاحه الأرجنتينى الأصل شى جيفارا الذى لقى مصرعه عام ١٩٦٧ ، وسلفادور الليندى الذى اغتيل فى انقلاب عسكرى فاشستى فى شيلى عام ١٩٧٣ ، وموريس بيشوب الذى لقى مصرعه أمام القوات الأمريكية عند غزوها جزيرة جرينادا عام ١٩٨٣ ، وآخرهم دانييل أورتيجا الذى تمكنت قوات الغزو الأمريكية من القبض عليه فى بنما فى بداية عام ١٩٩٠ ، وقدمته للمحاكمة أمام القضاء الأمريكى فى عدة تهم من بينها تزعم عصابة لتهريب المخدرات ..

والمرجح أن كاسترو تأثر أيضا بنبأ القبض على الإرهابى العالمى كارلوس وتسليمه للقضاء الفرنسى .. لأن كارلوس ينتمى هو الآخر لأمريكا اللاتينية .

وبعد أن امتد العمر والبقاء فى السلطة للرئيس الكوبى كل هذه السنين .. فإنه فى الفترة الأخيرة أخذ يستشعر العزلة ، فالحصار الاقتصادى الذى تفرضه عليه جارته الكبرى .. الولايات المتحدة .

منذ بداية فترة حكم الرئيس الراحل جون كيندى .. قد أحدث تأثيره بشكل واضح على أهالى كوبا ، ودفعهم إلى طوفان الهجرة .. كما أن موسكو التى كانت تدعم كوبا بمبلغ مليار دولار سنويا ، قد توقفت منذ سبع سنوات عن تقديم هذا الدعم ، كما توقفت عن شراء المحصول الرئيسى لكوبا – وهو السكر – وكانت من قبل تشتريه بسعر تفضيلى ، أى بأكثر من سعره الحقيقى .

وعلى مدى السنوات الأخيرة راحت الحكومة الكوبية تخفض بنسب متزايدة من استهلاك الطاقة ، ومن الوقود ، بنسب متزايدة من استهلاك الطاقة ، ومن الوقود ، وبدأت تستورد آلاف الدراجات من الصين لكى يستخدمها الأهالى بدلاً من السيارات والموتوسيكلات .. كما شرعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الكوبى فى اطفاء الأنوار خلال اجتماعاتها .. بينما لا يزال شعار الحزب هو « الاشتراكية أو الموت » .

وفى شوارع هافانا خفت حركة المرور ، وقل عدد الأتوبيسات بلغارية الصنع والسيارات الروسية من طراز « لادا » .

أما أهالى الجزيرة فإن ٦٥ فى المائة منهم من الشباب الذين ولدوا بعد ثورة كاسترو .. ونسبة الطلاق بين هؤلاء الشباب بلغت ٥٠ فى المائة من الزيجات .

ومجموع التعداد لا يتجاوز ١٢ مليونا ، ثلثاهم من أصل أسبانى والباقى مخلطون .

وفى مثل هذه الأيام منذ ست سنوات ألقى كاسترو خطابا شهيرا فى « ميدان الثورة » بقلب العاصمة هافانا ، قال فيه : « إذا تحلل الاتحاد السوفيتى أو اختفى من الوجود .. فإننا سنواصل بناء الاشتراكية .. أما الرأسمالية فلا يمكن أن تعود إلى كوبا ما دام هناك ثورى واحد .. قاوموا .. قاوموا .. قاوموا .. » .

وقاوموا لمدة أربع سنوات ، ثم انهارت المقاومة ، وبدأت الزوارق تحتشد بالمئات وتتخذ وجهتها إلى قلعة الرأسمالية !

وفى بداية عام ١٩٩٠ قال كاسترو فى خطاب آخر : إن حزبنا سيحكم إلى الأبد . وليس لدينا ولن يكون لدينا أبدا قطاع خاص . كما أنه ليس لدينا ولن يكون لدينا أبدا تعدد حزبى !!

وهو الآن يرى أهله يهربون بالجملة .. ويبصر خزانة بلاده وقد نضبت منها العملة الصعبة والسهلة ، وأسواق العالم شبه مغلقة أمام صادراته وفوق كاهله ديون . والمحلات التجارية تزداد خواء . والطوابير تزداد طولا والمحاصيل تذوى فى الحقول لأنها لا تجد وسيلة نقل إلى الأسواق .

ومع بداية التسعينات .. بدأت على استحياء لقاءات دبلوماسية بين مندوبى كوبا والولايات المتحدة فى الأمم المتحدة . وعندما أعاد « الاتحاد السوفيتى » العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل . كان كاسترو يستقبل مبعوثا إسرائيليا بارزا ، ويبدى له إعجابه بالسيدة جولدا مائير !

ولا تزال بعض دور السينما الكوبية تعرض أفلاما أمريكية ، ولا سيما الأفلام المأخوذة عن روايات الكاتب الأمريكى المعروف إيرنست هيمنجواى . فقد كان هيمنجواى له عشق خاص بهذه الجزيرة ، وقد عاش فيها ٢٢ عاما ، وكتب عنها عدة روايات أبرزها رواية « عبر النهر وبين الأشجار » وكانت المرة الأولى التى ذهب فيها إلى هافانا عام ١٩٢٨ (بعد مولد كاسترو بعام واحد) حيث عمل هناك مراسلا صحفيا ، واشترى منزلا على الشاطئ بالقرب من العاصمة . وفى هذا المنزل استوحى روايته الشهيرة « العجوز والبحر » التى نال عنها جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٥٤ . كما أنه عقد قرانه على زوجته الأخيرة مارتا جلهورن فى هافانا عام ١٩٤٥ .

وعندما قام كاسترو بثورته واستولى على الحكم فى يناير ١٩٥٩ فإنه أبلغ هيمنجواى بأن ممتلكاته فى الجزيرة لن تصادر مثلما صودرت الممتلكات الأمريكية الأخرى . وفى يوليو ١٩٦١ أقيمت مكتبة فى هافانا تحمل اسم هيمنجواى وتضم تمثالا كبيرا له .

ومن جزيرة كوبا كادت تنطلق شرارة حرب عالمية ثالثة فى عام ١٩٦٢ عندما أدخل إليها السوفيت – فى غفلة من أعين مخابرات الغرب – منصات لإطلاق صواريخ هجومية . وتردد فى ذلك الوقت أن هذه الصواريخ تحمل رؤوسا نووية وأنها موجهة إلى مدن الولايات المتحدة بالدرجة الأولى . وبعد تهديدات متبادلة بين موسكو وواشنطن . أمر الرئيس الأمريكى الراحل جون كيندى

بفرض حصار مسلح حول الجزيرة ، ووافق خروشوف على تفكيك الصواريخ ومنصات إطلاقها وإعادتها إلى « الاتحاد السوفيتى » ومنذ ذلك الوقت بدأ عهد « الوفاق » بين الدولتين العظميين ، حيث وقعتا فى العام التالى معاهدة موسكو لحظر إجراء التجارب النووية ، ثم تلاها العديد من اتفاقات نزع السلاح ..

ومنذ بداية الوفاق أخذت كوبا تفقد دورها السياسى كموقع أمامى للعالم الشيوعى فى أمريكا اللاتينية ، وأصبحت بالنسبة للولايات المتحدة مركزا للتآمر وللمغامرات العسكرية فى القارة الأفريقية ، ولا سيما فى أنجولا ..

وفى الماضى لم يجد الكوبيون كثيرا من المشقة فى شحن قواتهم المسلحة عبر المحيط إلى الشاطئ الأفريقى ولكن الكوبيين يجدون الآن صعوبات جمة فى عبور المضيق الذى يفصل بينهم وبين شاطئ ميامى بولاية فلوريدا .. فلم يعد الزورق هو الوسيلة إلى أرض الأحلام .. وإنما أصبحت قوات حرس الحدود الأمريكى تعترض رحلتهم وتعيدهم إلى الجزيرة لكى تكدسهم بعشرات الآلاف فى القاعدة العسكرية الأمريكية المقامة جنوب غرب الجزيرة وتحمل اسم قاعدة جوانتانامو والتى أصبحت أشبه ما تكون بمعسكر للأسرى ..

الكسندر دوبتشك

الفارس يموت واقفا

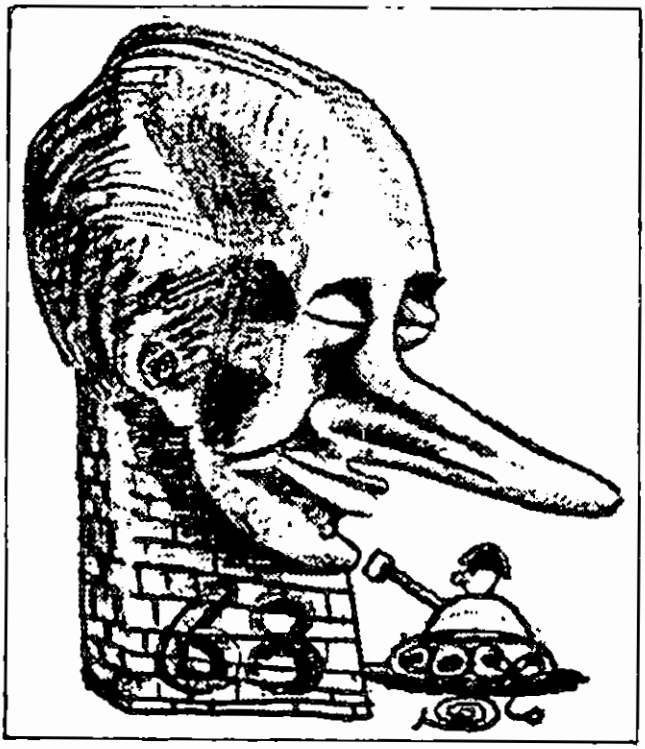

لم يشأ له قدره أن يموت ميتة عادية ..

فهو زعيم طبع بلاده بطابعه ، وترك أثرا لا يمكن أن يمحو الموت !

وهو أحد القلائل الذين سبقوا الزعيم الروسى جورباتشوف فى محاولة الاصلاح الاقتصادى ، وإطلاق العنان للشعب لكى يخرج عن كبته ويرفع عقيرته مطالبا بالحرية .

يقولون عنه فى الغرب إنه الرجل الذى أراد أن يعطى وجها إنسانيا للنظام الاشتراكى فى تشيكوسلوفاكيا ولكنه فشل أمام جحافل الدبابات « السوفيتية » .. فجاءت النتيجة الحتمية بعد ربع قرن من الزمان حيث سقطت الأنظمة الاشتراكية لا فى تشيكوسلوفاكيا فحسب وإنما سائر دول أوروبا الشرقية وفى قلب « الاتحاد السوفيتى » الذى تحول بالتالى إلى ١٥ جمهورية مستقلة !

ومنذ سبع سنوات عاد الكسندر دوبتشك إلى الظهور فى أحد ميادين مدينة براج بعد أن ظل مختفيا زهاء ٢١ سنة .. للظهور لكى يخطب فى نحو نصف مليون من أبناء التشيكوسلوفاكى الذين تجمعوا للمطالبة من جديد بالوجه الإنسانى للاشتراكية .. وهو أمر – كما اتضح فيما بعد – صعب التحقيق

وبينما كانت صيحات الجماهير تدوى فى أرجاء الميدان الكبير وهى تتغنى باسم دوبتشك .. كان هو يقطع صيحاتها الزاعدة بكلماته الهادئة : « حكومتنا تقول لنا إن الشارع ليس المكان المناسب لحل المشاكل ، ولكننى أقول إن الشارع هو المكان ، وإن صوت الشارع يجب أن يسمع » .

وتعود الصيحات الراعدة تدوى فى الميدان الفسيح الممتلئ بالبشر والذى يحمل اسم القديس ونسسلاس الذى يرتفع فى وسطه تمثال ذلك القديس الذى أصبح ملكا ثم شهيدا ، وعلما من أعلام نضال التشيك فى مملكة بوهيميا القديمة .

وكان هذا الخطاب وهذا اللقاء العاصف بين الشعب والزعيم الشعبى هو بداية الانتفاضة الجديدة التى أصبحت تعرف الآن باسم « الثورة المخملية » .

جاءت هذه الثورة المخملية بعد أن بلغت حركة « ربيع براج » سن الرشد حيث كانت قد أكملت ٢١ عاما بالتمام .

وكانت هذه الحركة الاصلاحية قد بدأت فى يناير ١٩٦٨ واكتملت فى ربيع نفس العام ، ولكن لم يقيض لها الاستمرار سوى مرت مثل نسمة رقيقة هدهدت البلاد خلال أشهر الربيع قبل أن تأتى جحافل جيوش حلف وارسو فى الصيف لكى تبدد بحلمها الإنسانية وتدوس شعاراتها تحت جنازير الدبابات .

ففى منتصف ربيع ١٩٦٨ وعلى وجه التحديد يوم ٩ أبريل أصدر دوبتشك وثيقة من ٥١ صفحة أطلق عليها اسم « برنامج العمل » وتضمنت القواعد الأساسية للحريات العامة والانتخابات المحايدة والمفتوحة أمام كل المرشحين بلا تفرقة بين شيوعى وغير شيوعى فضلا عن الاصلاح الاقتصادى من خلال التخفف من التخطيط المركزى وربط الأجر بالإنتاج ..

كان عمره فى ذلك الوقت ٤٧ عاما .. ولقيت دعوته هذه تجاوبا بين الجماهير على اختلاف فئاتها وطوائفها .. وفى خلال أسابيع أصبح دوبتشك بطلا وطنيا من نوع فريد ، وأمام شعبيته الكاسحة اضطر أنطونين نوفوتنى – الذى كان معروفا بميوله الستالينية – إلى التخلى عن زعامة الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ثم إلى الاستقالة من رئاسة الجمهورية (حيث كان يجمع بين المنصبين) وحل محله دوبتشك فى زعامة الحزب ولودفيج سفوبودا فى رئاسة الدولة وتألفت حكومة جديدة كانت سياستها المعلنة هى إعادة الديمقراطية والتعددية الحزبية ..

إلا أن الأنظمة المتشددة فى موسكو وجميع عواصم الكتلة الشرقية فى ذلك الوقت لم يعجبها هذا الاتجاه وخشيت من أن تنتقل عدواه إليها وراحت تبدى مخاوفها من هذه النزعة الليبرالية وبدأت تطالب حكومة براج الجديدة بالتراجع عن حركة « ربيع براج » وبالانتكاس إلى الاتجاه المتصلب ..

ولم تجد المطالبة .. ولا براج أذعنت للتهديد وعندئذ حزمت

أنظمة أوروبا الشرقية أمرها وحشدت جيوشها ثم لم تلبث أن أطبقت على الأرض التشيكوسلوفاكية من كل حدب وصوب لكى تقمع بالمصفحات والدبابات ما عجزت عن مواجهته بالرأى والحجة والاقناع .

وأصبح أبناء تشيكوسلوفاكيا ذات يوم قائظ من أيام أغسطس ١٩٦٨ فإذا بأراضيهم تجتاحها خمسة جيوش قادمة من خمس دول متاخمة لها من خمس جهات وإذا بزهور الحرية وبراعمها تداس تحت أقدام الغزاة الغاشمين .

وبعد القمع العسكرى وبعد أن تبددت نسمات ربيع براج أمام دخان المعارك غير المتكافئة فرضت الرقابة الصارمة على الصحف وأخرجت كل العناصر الليبرالية من السلطة وجرت حركة تطهير واسعة النطاق بدأت أول ما بدأت بدوبتشك ذاته ..

ويأخذونه عنوة إلى موسكو كأنه أسير حرب ويضعونه ضمن الوفد المكلف بالتفاوض مع الكرملين بشأن إنهاء الاصلاحات السياسية الاقتصادية التى انطوى عليها ربيع براج ..

وبعد سنوات أخرى ينفونه إلى أنقرة بدعوى تعيينه سفيرا لبلاده فى تركيا .. ثم يعفونه من كل مناصبه الرسمية فى عام ١٩٧٠ ويصبح مجرد موظف فى هيئة المحافظة على الغابات .. ثم فى عام ١٩٨١ يحيلونه إلى المعاش لبلوغه سن الستين !

ولكن لا تكاد تمضى ثمانية أعوام حتى يظهر من جديد فى أكبر وأشهر ميادين براج لكى يبدأ من هناك الثورة المخملية .

وفى النهاية يختاره الشعب رئيسا للبرلمان ، أما زميله فى النضال الكاتب المسرحى فاتسلاف هافيل فيقع عليه الاختيار رئيسا للدولة .

وينتهى الأمر فى صيف عام ١٩٩٢ إلى الاتفاق على تقسيم تشيكوسلوفاكيا إلى دولتين منفصلتين على أساس أنها دولة ذات قوميتين هما التشكيك والسلوفاك .. ومن حيث أن دوبتشك نفسه سلوفاكى فإنه أصبح أقوى المرشحين لتولى رئاسة دولة سلوفاكيا الجديدة التى كان من المقرر أن يعلن قيامها يوم أول يناير ١٩٩٣ .

وقبل هذا الموعد بأربعة أشهر فقط وفى يوم أول سبتمبر يقع حادث سيارة يصاب فيه دوبتشك إصابة بالغة ويدخل المستشفى لكى يلفظ أنفاسه الأخيرة فى نوفمبر ١٩٩٢ .

هل كانت محض صدفة ؟ .. أم أنه أراد أن يموت واقفا مثل الفارس فى الميدان ؟ ..

ومن عجب أن يجيء موته فى نفس الشهر الذى ولد فيه منذ ٧١ سنة أما زوجته آنا أوندريسوفا التى اقترن بها عام ١٩٤٥ فقد سبقته إلى لقاء بارئها قبله بعامين .. بعد أن أنجبت له ثلاثة أبناء ..